د. ماجد الدرويش الطرابلسي الحنفي[1]

الحروب الأهلية
من منظور السيرة النبوية

الحمد لله رب العالمين المنعِم على عباده بالأمن والأمان.

والصــلاة والسلام الأتمــان الأكملان على سيدنا رسول الله سيد ولد عدنــان، وعلى آله وأصحابه بدور كل زمان، وبعد:

لا يخفــى علــى باحث ما خالــط الكثير من المفاهيم والقيــم الدينية من دَخَــنٍ أدى إلى تشويهها، وعطــل فوائدها، وتسبب بمشكلات غلبت على حيــاة الناس، فقلبت الأمن خوفاً، والاطمئنان قلقاً، والخلاف جريمة.

ومن هذه المفاهيم والقيم: (الجهاد)، حيث اختلط فيه الشرعيُّ بحبِّ الانتقام والثأر، وبالاعتداء علــى حيــاة الناس وأموالهــم، فكانت النتيجة دمــاءً تسفك في الطرقات، وموتا يطــارد الناس في شوارعهــم وبيوتهم، وكأننا نعيش تلك المرحلة من علامات الساعة التي نقلها لنا أبو هريرة رضي الله عنــه، عــن النبي صلى الله عليه وسلــم أنه قال: «والذي نفسي بيــده لا تذهب الدنيا حتى يأتي علــى النـاســ يوم لا يــدري القاتل فيما قَتَــل ولا المقتول فيم قُتِــل». وما أظن أحــداً ممن أراد الله تعالــى به خيــرا ففقهه في دينه إلا ويــدرك أن مثل هذه الأفعال تضرُّ في ديــن الله، وقد تكون بابا للصدِّ عن دين الله تعالى، كما أخبر الله تعالى عن عباده المؤمنين في دعائهم: ﴿ولا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾.. فمثل هذه الأفعال المشينة تنفر منها الطباع السليمة، ناهيكم عن أن المتربصين يفرحون بها لاستغلالها ضد الإسلام.

وهــذا لا يستغرب، فالقــرآن الكريم أخبرنا عن ألوانٍ من الكيد تَخفى علــى أولي الألباب، من مثل

١- أستاذ الحديث النبوي الشريف وعلومه في جامعة الجنان

قضية مسجد ضرار، فلولا أن الله تعالى أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم بشأنه لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه وافتتحه.. وبذلك يكتسب شرعيته. فمع أن عنوان هذا العمل إسلاميٌّ؛ وهو المسجد الذي يُعبَد فيه رب العزة سبحانه؛ إلا أن الذين أقاموه أرادوا جعله مركز تجمع لمن حارب الله ورسوله، تعمية على المؤمنين، وإمعانا في حرب الإسلام والمسلمين. وبالتالي فلا يُستغرب اليوم أن توجد عناوين دينية كبيرة، وتكون حقيقتها كحقيقة مسجد ضرار، وعليه فلا بد من ضابط نفرِّق به بين الحقِّ والباطل، لأنه لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والضابط في ذلك برأيي: هو السلوك العملي لهذه العناوين، فبقدر ما يكون هذا السلوك مستقيما على الجادّة، يكون العنوان وأصحابه صادقين في انتسابهم وسلوكهم. وبقدر ما يكون هذا السلوك منحرفا عن الصراط الواضح الجلي، يكون صاحبه غير معبِّر عن حقيقة الدين، ولا يُسمحُ له أن ينطق باسمه، بل ربما كان مُغررا به من قِبَلِ أمثال منشئي مسجد ضرار، وما أكثرهم في كل زمان ومكان. فالعبرة ليست بالمظاهر والمسميات، وإنما بالحقائق والمعاملات.

بعد هذه المقدِّمة أريد أن أؤكد على مفهومٍ، وأن أعالج مشكلة..

أما المفهوم فهو أن مشيئة الله سبحانه قضت أن يكون الناس مِللا وفِرقا وأمما شتى، كما قال سبحانه: ﴿ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم..﴾. قال العلماء: أي، خلقهم لأجل الخلاف.

ثم بيَّن الحكمة من هذا الاختلاف، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. فكانت الحكمة من الاختلاف والتنوع هي أن يتعارف الناس، وهذا يستلزم الحوار وأدب الخلاف والاحترام المتبادل بين أصحاب الثقافات المختلفة الذين يتعارفون فيما بينهم، والأهم من ذلك: يستلزم الإنصاف، فلا يكون الخلاف سببا للافتراء والتقاذف بالتهم.

ولضبط عملية التعارف بين المختلفين شرع الله سبحانه أحكام التعامل مع المخالفين وآدابه: سواء كان الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين غيرهم من بني البشر.

ويزداد هذا التأكيد إذا كان المختلفون يعيشون في بلد واحد، ذلك أن أمن البلد مقدَّمٌ على كل شيء، والمنازعة التي توصل إلى الاقتتال تواجَه بشدَّة وقسوة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فهذه الآية فيها إشارة؛ قد ترتقي إلى مرتبة البيان؛ إلى حرمة الحروب الداخلية في البلد الواحد، وأن أمن البلد

الذي يعيش فيه المسلمون مقدَّمٌ على كل خلاف ونزاع.. وهذه هي المشكلة التي أريد أن أعالجها. ودليلنـا على ذلك جملةٌ من المواقف والتوجيهات لصاحب السيرة العطرة عليه الصلاة والسلام، سأكتفـي بدراسـة مثاليـن فقط: الأول فـي مكة المكرمة زمـن الاستضعاف الذي كـان يشكل فيه المسلمـون أقليَّة. والثاني في المدينة المنورة زمن الغلبـة والظهور حيث كان يشكل فيه المسلمون الأغلبية.

فـي مكة

الانطلاقة ستكون من قول ربّنا سبحانه وتعالى:

﴿أَلَـمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

هذه الآية من سورة النساء، رقم (٧٧)، وهي سورة مدنيّة، وهذا يعني أنّها نزلت بعد الهجرة، على التعريـف المختار للقرآن المدنـي، وبالتحديد في المدينة كما قال حبـر الأمّة عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، وقيل في سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عبّاس: أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمكّة– وقد اشتدَّ الأذى بهم يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن أنفسهم– فقالوا: يا نبيّ الله، كنّا في عزّة ونحن مشركـون فلمّا آمنّـا صرنا أذلّة؟:، قال – صلّـى الله عليه وسلّم–: «إنّي أمـرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلمّا حوّله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفّوا، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ...﴾.

ذكـر ذلـك الحافظ ابن كثير فـي تفسيره، وقـال: ورواه النَّسائي والحاكم وابـن مَرْدُوْيَه، من قول السُدِّيّ: لم يكن عليهم – أي في مكّة – إلاّ الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلمّـا فرض عليهم القتال– أي في المدينة– ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَـوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت.اهـ.

هـذا ما أورده الحافظ ابن كثير من أسباب نزول، وهناك سبب آخر: قيل إنها نزلت في يهود، وهو أمر مستبعد لأمور :

١– لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾. ومعلوم أن يهود ليس لهم حظّ في الآخرة، وهذا خطاب وُجِّه إلى مؤمنين يرجون الآخرة.

٢- من منهج الحافظ ابن كثير في تفسيره أنّه يقدّم ابتداءً أصحّ الأقوال فيما تعدّدت فيه التفسيرات، وقد قال رحمه الله في تفسير هذه الآية ما يأتي: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكّة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النُّصُب - أي الأنصبة المقدّرة -، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلّة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً كما يُقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلاّ بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار ومع هذا، لمّا أُمروا بما كانوا يودّونه، جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي لولا أخّرت فرضه إلى مدّة أخرى، فإنّ فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأيم النساء». انتهى.

هذا الكلام التحليلي لقراءة النص مقروناً بزمنه وسبب نزوله مهمّ جداً لأنّه يعطينا مفتاحاً للبحث عن العلل التي تصلح أصلاً يُقاس عليه في كلّ زمان ومكان. والحقيقة أنّ هذا أصلٌ من أصول التفسير للنصّ القرآني أو النصّ النبويّ، وهو ما لفت إلى مخاطر الجهل به سيدُنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، عندما استفسره أمير المؤمنين الملهم الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، عن أسباب افتراق هذه الأمّة، والحال أنّ كتابها واحد ونبيّها واحد؟!!. فقال ترجمان القرآن رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن القرآن نزل فينا وكُنّا نعلم فيم نزل، وسيأتي يوم على الناس يقرءون القرآن ولا يعلمون فيم نزل، فيكون لكلّ واحد منهم رأي، فإن كان ذلك اختلفوا، وإذا اختلفوا اقتتلوا. على ما جاء في سنن سعيد ابن منصور.

فإذا عُدْنا إلى تحليل كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله، نستطيع أن نخرج بنتائج منها:

١- أنّ بعض الصحابة - وليس كلُّهم - عندما طلبوا من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الإذن بالقتال في مكّة كان الدافع الثأر لأنفسهم من طغيان قريش عليهم. وهذا يتماشى مع طبيعة الحياة القبلية التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام، وهم أصلاً حديثو عهد بإسلام، وما زالت عندهم بقايا ممّا شبّوا عليه، ويُظْهِر هذا المعنى، قول عبد الرحمن بن عوْف رضي الله عنه ومن رافقه من أصحابه للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الحديث آنف الذكر: «كنّا في عزّة ونحن مشركون فلمّا آمنّا صرنا أذلّة» ؟!!.

إنّ نفس العربي تأبى الذلّة والمهانة، بل كانتِ الحرب لتنشب بين القبائل لأقلّ من ذلك، وهذا ما

دفـع الحافظ ابن كثيـر رحمه الله إلى القول : «وكانوا يتحرقون ويودون لـو أُمروا بالقتال ليشتفوا مــن أعدائهم». غير أن الله تعالى يريـد منهم أن يتخلّصوا نهائياً من هذه النزعة القبليّة، ويرتقوا بتصرّفاتهـم إلــى مستوى العالميّة التـي تنظر إلى الأمر نظـرة شاملة لا مجتـزأة. وهذا يعني أن الصبــر في فترة كهذه هو الذي يحقّق النصر والظفر، وينقل المسلمين من حالة الضيق إلى حالة السعـة والفرج. والله أعلم. مع العلم أنّ القوم فيهم أمثال: عمر بن الخطّاب، وما أدراكم ما عمر. وحمـزة بـن عبد المطّلب -صائد الأسـود- والزبير بن العوام، أول من شهـر سيفاً في سبيل الله، وعلـيّ بن أبـي طالب، فتى قريش. وفيهـم من أمثال أبي بكـر الصديق، وعثمان بـن عفّان، وعبد الرحمــن بن عوف، مــن كبار تجّار مكّـة وأسيادها المقدّميــن. فأمثال هؤلاء ليس مــن السهل أن يسكتـوا على طغيان من قد لا يدانوهم شرفاً ونسبـاً، وإن ساووهم ولكن حتماً لا يفوقونهم. فلا بدّ أن يكون السكوت إذن لأمر أعظم وأكبر من مجرّد الثأر للنفس. هذا من ناحية.

ومــن ناحية أخـرى فإن الجهاد أمـرٌ خطير شأنه، مرير قـراره، فلا بدّ أن يكـون الدافع إلى زهق الأنفـس والأموال أمـراً يفوق مجرّد الاعتبارات الشخصيّة ليتخطّاهــا إلى اعتبارات دعويّة ترتبط بالهدف الأساس ألا وهو عبادة الله تعالى...

٢- نفهـم من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله أنّه عندما تغيّر الواقع المعاش من تضييق وضغط في مكّة، إلى سعة ورغد في العيش في المدينة، تغيّرت نظرة البعض إلى القتال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْـتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾. وهذا - والله أعلم - من أعظم الأسباب التي قـد تكـون وراء عدم الإذن في القتال بمكّة. لأنّ النفس مجبولة على ردّ الفعل والثأر للذات ممّن ظلمها، ولذلك وُجد الاندفاع للقتال في مكّة في ظلّ ظروف القهر والضغط. وهذا انصياع وراء إرادة النفس أكثر منه اندفاعاً وراء حكم الله سبحانه. أما في المدينة حيث بدلت الأرض غير الأرض وعوِّضت الدور والأمـوال وصار للمهاجرين موطئ قدم وتجـارة وارتاحت النفوس من أجـواء الضغط والتضييق، وتغيّرت وسائل الصراع، وصــار المسلمون في مجتمع آخر منفصل عــن مجتمع مكة، مالت النفس إلــى المحافظة على المكتسبات الجديـدة، فنرى الحافظ ابن كثير يغوص في أعماق نفوس المخاطبين في تلك الآيات ويقول: «لم يؤمر - أي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم - بالجهاد إلاّ بالمدينة، لما صارت لهم - أي للمهاجرين - دار ومنعة وأنصار، ومع هــذا لمّا أُمروا بما كانوا يودّونه، جزع بعضهم منــه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً». وهذا يعطينا فكرة واضحة أنّه قد يعلن أحدٌ ما حالة الجهاد في سبيل الله تعالى، بينما ينطلق مدفوعاً بحب الثأر من النظام الذي طغى عليه وظلمه وأخذ ماله بغير حق. ولعلّ هذا المنطلق لا يصلـح دافعاً للجهاد، وإنّمـا الذي يصلح أن يكون منطلقاً هو مثل قولــه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا

تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾. فالجهاد يكـون مـن أجل استخلاص المستضعفيـن من المؤمنين من أيدي الظالميـن، لا من أجل الثأر للنفسـ. وهذا يحتاج إلى أركان، أهمها: الأرض التـي تنطلق منها لتجميع هؤلاء المستضعفين الذيـن استخلصـوا من أيـدي الظالمين. والأهم من ذلـك القدرة عليه. ونلحـظ هذا في قول الحافـظ ابن كثير رحمه الله مبرراً عدم الإذن بالقتال في مكّة بأنّه لأسباب كثيرة، منها: «قلّة عددهم بالنسبة إلى عدد عدوّهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض». وما لا شكّ فيه أنّ مكّة أشرف بقاع الأرض، وأنّها بلد حرام، ولكنّ حرمة المؤمن أشدّ عنـد الله تعالى حتى مـن الكعبة نفسها، ولذلك أحلّها الله تعالـى لنبيّه عام الفتح، وقد وجدنا في القرآن الكريم ما يثبت أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الزمان والمكان، في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَـكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَـرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيـهِ كَبِيرٌ...﴾. الآية. إذن يبقى عندنا أن السبـب الأساسـ أنهم كانوا فـي بلدهم، وأنّه لـو أُذن لهم بالقتال لدارت حـرب أهلية لا تُبقي ولا تـذر، والقـوم مدفوعون بالعصبية التي لم تؤثر فيها ابتـداءً العقيدة الجديدة تأثيراً كبيراً. فهـؤلاء قـوم النبي صلّى الله عليه وسلّم لـم يتخلّوا عنه وقت الحصار علـى كفرهم وشركهم، وهـؤلاء بنـو تميم، اجتمعوا فوق رأس أبي بكر الصدّيق عندما أوذي بالضرب حتّى كادت روحه تزهـق، وهم يتوعدون قريشاً إن مات صاحبهم، وهذا العبّاسـ عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخوّف قريشاً من بطشة بني غفار عندما تعرّضوا بالضرب لأبي ذر رضي الله عنه.

فهذه كلها أسباب، والله أعلم، قد تشعل حرباً أهلية تطيش معها العقول، وتذهب برجالات الدعوة، وتنتهـي هـذه العقيدة فـي مهدها. فما الـذي سيحصّله رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم من كلّ ذلـك؟!!. بل ما الذي سيحصّله الدين الجديد؟: بينما وجدنا أن سياسة الصبر وضبط النفس قد آتـت ثمارها. ويؤكد هـذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة يـوم رأى الضغط يشتد على أصحابه، خوفا مـن ردات فعل غير محسوبة تخلط الأمور، وخوفا من أن يـؤدي الاحتكـاك اليومي إلى حرب قبلية جديدة لا مصلحة للدعوة فيها على الاطلاق. ونحن لو قرأنـا ما ذكره الأخباريون من تعليل للهجرة إلى الحبشة نجدهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلـم قد أمر أصحابـه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجـر الضعفاء... ولو أننا راجعنـا أسماء الذين هاجروا لوجدناهم من أشراف قريش، من مثل: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بـن العـوام، وجعفر بن أبـي طالب، وغيرهم.. بينمـا الضعفاء، من مثل: صهيـب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم لم يتركوا مكة. وهذا يعني عندي أمرا مهما، وهو: أن النبي صلى الله عليه وسلم

أراد أن يفصل بين أكابر صحابته وبين الضغط عليهم من قبل قريش خوفا من اندلاع حرب أهلية بيــن القبائـل، لذلك أرسلهم إلــى أرض (لا يظلم فيها أحد) فباعد بيــن أسباب اندلاع حرب بين أهل مكة.

في المدينة المنورة

هــذا الحرص على عدم إثارة حــرب أهلية نجده أيضا في المدينة المنــورة، فقد أخرج الإمام أبو داود فــي سننه في كتاب الخراج والإمارة والفــيء، باب في خبر النّضير: أنّ كفّار قريش كتبوا إلى ابــن أُبَيٍّ بن أبي سلول ومَنْ كان معــه يعبُد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّــم يومئــذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنّا نُقسم بالله لتُقاتلُنَّه أو لتُخرِجَنَّه أو لنسيــرنّ إليكــم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم. فلمّا بلغ ذلك عبد الله بن أُبَيّ ومن كان معه من عبدة الأوثان، أجمعوا لقتال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فلمّا بلغ النبيّ صلّى الله عليه وسلّــم لَقِيَهُــم، فقال: «لقد بلغ وعيــدُ قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكُــم بأكثر ممّا تريدون أن تكيــدوا به أنفسكم، تريــدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم!» فلمّا سمعــوا ذلك من النبيّ صلّى الله عليــه وسلّــم تفرّقوا... اهـ. وأول ما يستوقفنا في الخبر وروده تحــت باب (بني النضير) وهم من اليهــود، مــع أنــه لا ذكر لليهود في الحديث، فغلب علــى ظني أن أبا داود رحمــه الله تعالى أراد أن يقــول: إن هــذه الخطوة التي قامت بها قريش كانت بتوجيه من بني النضير، مما يعني أن مثل هذه المكائد التي تشعل الحروب الأهلية ليس اليهود ببعيدين عنها.

ثــم ليُنظر إلــى محاولة قريش إثارة حرب أهلية بين أهل المدينة، لأنه حتماً لن يَتْرُك الأنصارُ من أهــل المدينــة ابنَ أُبي يطرد رسول الله صلّى الله عليه وسلّــم، وهم الذين بايعوه في العقبة الثانية علــى منعه في بلدهم مما يمنعون منه أهليهــم وأولادهم، وبالتالي فهذا أول اختبار لصدق البيعة، ولكــن هــذا الوفاء في هذا الموقع يعني الاستجابة لمكر الذيــن أرادوا إشعال حرب بين أبناء البلد الواحــد، وهــذا الذي أفهمه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابن أُبَيّ بن أبي سلول قبل أن يظهر نفاقه، وكــان المخاطبــون الأساسيون من معه مــن أهل المدينة، فقال لهم: (تريــدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكــم) وأن ذلــك مكيدةٌ كادتكم بها قريش، لتوقع بين أهل البلد الواحد، وترتاح هي من عناء المواجهة المباشرة، نلمح ذلك في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «ما كانت تكيدكم بأكثر ممّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم». ثم ليُنظر إلى حكمة هذا المنافق ابن أبي سلول كيف امتنع عن القتال حتى لا يُدخل المدينة بحرب دفعته إليها قريش عدوة الإسلام الأولى.

فيــا ليت حكامنا يعقلون، ولا يكون هذا المنافق أوعــى منهم، ويا ليت شباب المسلمين يفقهون ولا

يفتحوا مجالاً (لقريش) لتُشعل حرباً أهلية تهلك فيها القوة التي تشكل فيها خطراً حقيقياً عليها.

إنّ الوعي والحكمة وحسن القراءة للسيرة النبويّة في ضوء ما تنزّل من آيات القرآن الكريم، كفيل بأن يوجد عند المسلمين فهماً شرعياً مميزاً وطاعة لله تعالى قبل كلّ شيء يتولّد عنها نصر مبين بإذن الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾. وإنّ التسرّع والتهوّر وخوض غمار حروب تُجَرُّ إليها جرّاً، لن يجلب على الأمّة إلاّ الخسران، وخاصة عندما تكون غير مستعدة لذلك، وهذا ما أشار إليه راوي الحديث بقوله: «ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر». فهذا يعني أنّه لم يمضِ على الهجرة إلاّ الزمن القليل، وإذا كانت معركة بدر قد حصلت، والمسلمون غير مستعدّين لها، فكيف يكون حالهم قبلها؟!... فإذاً لا بدّ من تفويت الفرص على أعداء الدعوة من أن يستدرجوها إلى مقتلها، وكان الخطاب الوطني والقبليّ هو المفتاح الذي استخدمه الرسول صلّى الله عليه وسلّم لنزع الفتيل. (تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم).

وهناك مواقف أخرى نلمح فيها الحرص على عدم الاقتتال بين أبناء البلد الواحد، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» ومن مثل مدحه لسبطه الشهيد الحسن رضي الله تعالى عنه، بقوله: «ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين»، وغيرها كثير. إلا أنني أكتفي بما ذكرت لأؤكد على أن الحروب الداخلية في نظر الشريعة الإسلامية مما لا يُحْمَدُ، ومما ينبغي أن يُغلق في وجهه الباب، وأهم أسباب منعها إقامة العدل بين أبناء المجتمع الواحد حتى لا يكون ذلك سببا لاستغلاله من قبل المتربصين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.